بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

١ ـ لماذا التعريب؟

سؤال يطرح نفسه في هذا الموقف؟

هل اللغة العربية عاجزة في بنائها فتحتاج إلى تقويته بما تحتاجه من كلمات أعجمية؟

هل اللغة العربية التي استطاعت عبر القرون أن تسير في دربها الطويل وهي ثابتة الخطى، مرفوعة الرأس، لا تزعزعها الأحداث، ولا تنال منها أعاصير الحياة تمدّ يدها إلى بضع كلمات لتنظمها في سلكها، وتدخلها في تراكيبها؟

الحقيقة أن اللغة العربية ليست عاجزة في رصيدها اللغوي فتحتاج إلى كلمات تشدّ بها أزرها، أو تقوي بنيانها، وليست ضعيفة تهب عليها الأحداث، فتقضي على كيانها، وتحطم بنيانها، لأن اللغة العربية تصدّت لكل الأحداث، وواجهت كل المعارك في طريقها الطويل، وخرجت بحمد الله منتصرة.

ارتبطت بالقرآن الكريم فنمت وتطورت، وشقت طريقها إلى المستقبل وهي رابطة الجأش، لا تحفل بملّ يعترض طريقها من صخور وأشواك، وكيف تمد اللغة

العربية يدها القوية إلى كلمات أعجمية، وهي اللغة الواسعة التي لا يمكن لأحد أن يسبر غورها، أو يستوعب تراكيبها، أو يحيط علماً بألفاظها؟

ولله درّ الإمام الشافعي رضي الله عنه حينما قال في مقدمة كتابه «الرسالة»:

«لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبيّ[1]».

ويؤازر قول الشافعي ما قاله ابن فارس في كتابه: (الصاحبي): «قال بعض الفقهاء: كلام العرب لا يحيط به إلا نبيّ».

ويعلق ابن فارس على هذه المقولة بقوله: «وهذا كلام حريّ أن يكون صحيحاً، وما بلغنا أن أحداً ممن مضى حفظ اللغة كلها».

فأما الكتاب المنسوب إلى الخليل وما في خاتمته من قوله: «هذا آخر كلام العرب» فقد كان الخليل أورع وأتقى لله جلّ ثناؤه من أن يقول ذلك[2]».

وما لي أذهب بعيداً، وهذا شيخ العلماء أبو عمرو بن العلاء يقول فيما يحكيه يونس عنه: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[3]».

* * *

ـ أمثلة تدل على سعة اللغة:

١ ـ كثير من الكلمات العربية قام على أساس محاكاة الأصوات: من ذلك:

«القهقة: حكاية قول الضاحك: قَهْ قَهْ.

الصَّهصه: حكاية قول الرجل للقوم: صَهْ صَهْ، وهي كلمة زجر للسكوت.

الدَّعْدَعة: حكاية قول الرجل للعاثر: دَعْ دَعْ؛ أي انتعش.

---

(١) الرسالة/ ٥٠، مقدمة تاج العروس ١/ ١٦.

(٢) الصاحبي/ ٢٧.

(٣) الخصائص ١/ ٣٨٦.

الزَّهْزهة: حكاية قول الرجل: زَهْ زَهْ.

النَّحْنحة: حكاية قول الرجل: نَحْ نَحْ، عند الاستئذان وغيره.

الوَحْوحَة: حكاية صوت به: بَحَحٌ.

الوَلْوَلَة: حكاية قول المرأة: واويلاه[1].

وقد ذكر الثعالبي أن بعض الكلمات تقوم على الترتيب الصوتي، فقد عقد في كتابه المشهور «فقه اللغة» فصلاً في ترتيب الأصوات فقال:

«إذا أخرج المكروب أو المريض صوتاً رقيقاً فهو الرنين، فإذا زاد فيه فهو الأنين، فإذا زاد فيه فهو الخنين، فإذا أزفر به، وقبح الأنين فهو الزفير، فإذا مدّ النفس ثم رمى به فهو الشهيق، فإذا تردد نفسه في الصدر عند خروج الروح فهو الحشرجة[2]».

من هذه الأمثلة يتضح لنا أن هناك علاقة بين أصوات الكلمات العربية ومعانيها.

وإذا عرضنا الكلمات الدالة على أصوات الحيوان نجدها كثيرة يصعب حصرها وكلها مرتبطة تمام الارتباط بمحاكاة أصوات هذه الحيوانات من ذلك: «رُغاء الناقة وبغامها، وهدير الجمل وقرقرته، وصهيل الفرس وضبحه إذا عَدا، وحمحمته عند الجوع والاستئناس، وشحيج البغل، ونهيق الحمار، وخُوار البقر، وثُغاء الغنم، وزئير الأسد، وعواء الذئب، ونباح الكلب، وضُغاؤه إذا جاع، ووقوقته إذا خاف، وهريره إذا أنكر شيئاً أو كرهه، وضُباح الثعلب، ومُواء الهرة، وصَرْصرة البازي، وقعقعة الصَّقر، وهدير الحمام، وسجْعُ القُمْرِيّ، وزقزقة العصفور، ونعيق الغراب، وفحيح الحيّات بفيها، وكشيشها بجلدها، وحفيفها عند تحرش بعضها ببعض: إذا انسابت، ونقيق الضِّفدع، وطنين الذّباب والبعوض[3].

أما الكلمات الدالة على أصوات الأشياء فكثيرة أيضاً، من ذلك: الخرير للماء، القرقرة: صوت الآنية: إذا استخرج منها الشراب، والنشيس: صوت

(١) فقه اللغة للثعالبي/ ٢٦٠.

(٢) فقه اللغة للثعالبي/ ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) انظر فقه اللغة للدكتور عبد الواحد وافي/ ١٧٠.

غليان الشراب، والشَّخْب: صوت اللبن عند حلبه، والحسيس.والمعمعة صوت النار، والأزيز: صوت المرجل عند الغليان، وهزيز الريح، وهزيم الرعد، وجعجعة الرحى، وصرير القلم والباب، وقلقلة القُفْل، وخَفْق النعل[1]».

* * *

٢ ـ **الاشتقاق**: وهو ما أطلق عليه الأستاذ الدكتور وافي مصطلح: **«الاشتقاق العام»**:

وقد فسر هذا المصطلح بقوله: «يرتبط كل أصل ثلاثي في اللغة العربية بمعنى عام وضع له، فيتحقق هذا المعنى في كل كلمة توجد فيها الأصوات الثلاثة مرتبة حسب ترتيبها في الأصل الذي أخذت منه، فالمعنى العام للعلم مثلاً، وهو إدراك الشيء وظهوره ووضوحه يرتبط بأصوات العين واللام والميم، فيتحقق هذا في كل كلمة توجد فيها هذه الأصوات الثلاثة مرتبة على هذه الصورة مهما تخللها أو سبقها أو لحقها من أصوات أخرى لَيِّنة أو ساكنة، فتتحقق في كلمات.. عَلِم، عَلِمْنا ـ أعْلَم ـ نَعْلم، اِعلمْ، اعلمي... علّم، علّموا، يُعَلّم، نُعَلّم، تَعلّم ـ تَعَلّموا، تعالَم، تعالموا، عِلْمٌ ـ عَلَمٌ ـ عَلاَمةٌ ـ معالم ـ علامات ـ عالم ـ عليم ـ علاّمة ـ عالمون ـ عُلوم، مُعْلَم، مُعَلِّم، مُعَلَّم ـ مَعْلوم ـ عالمون» إلخ[2]، ويسمي ابن جنى هذا الاشتقاق: الاشتقاق الصغير.

ومن ألوان الاشتقاق:

الاشتقاق من أسماء الأعيان:

من ذلك: مُذَهّب من الذّهب ـ مفضّض من الفضّة، مجصّص من الجصّ، استحجر الطين من الحَجَر ـ استنوق الجمل من النّاقة ـ استنسر البغاث من النّسر، استأسد الرجل من الأسد، تبغدد من بغداد.

ـ وتوّجَهُ: إذا ألبسه التّاج. وتبوب بَوّاباً: اتخذه، وأبحر: ركب البحر،

---

(١) المصدر السابق/ ١٧٠.

(٢) فقه اللغة/ ١٧٢.

وتنمّر: تشبه بالنمر، وتنعل وانتعل: لبس النعل، واحتطب: جمع الحطب.

ومن ذلك: المسهّم: الذي فيه نقوش كالسهام، والمرجّل: الذي فيه صور المراجل: جمع مرجل، والمدنّر: الذي فيه صور الدنانير، والمصلّع: الموشّى بمثل الضلوع، والمبرّج: الذي فيه صور البروج والمصلّب الذي فيه كالصّليب[1].

والمقفّص: نقش في الثياب بالطول والعرض، وفي ذلك يقول القائل:

لم أنس قول الوُرْق وهي حبيسة ... والعيش منها قد أقام مُنَغّصا
قد كنت ألبس من غصوني أخضرا ... فلبست منها بعد ذاك مقفّصا

* * *

ـ ومن ألوان الاشتقاق: الاشتقاق الأكبر، وهو: ارتباط بعض مجموعات ثلاثية من الأصوات ببعض المعاني ارتباطاً مطلقاً غير مقيد بترتيب فتدل كل مجموعة منها على المعنى المرتبط بها كيفما اختلف ترتيب أصواتها[2].

ومن الأمثلة على ذلك:

ـ أصوات: (ج ب ر).

هذا الصوت يدل على القوة والشدة مهما اختلف ترتيب الأصوات، وإذا قلبت الكلمة على وجوهها السّتة رأينا المعنى ثابتاً في كل التقاليب، وبيان ذلك:

١ ـ جبر: يقال: جبرت الفقير: إذا قوّيته، والجبروت: القوة والشدة.

٢ ـ جرب: يقال: رجل مجرّب: إذا مارس الأمور فاشتدت شكيمته.

٣ ـ بجر: يقال للقوي السّرة.

٤ ـ بَرَج: يقال لنقاء العين وبياضها، وهذا يكسبها قوة في الرؤية وشدة في النظر.

---

(١) فقه اللغة للدكتور وافي/ ١٧٤.

(٢) انظر كناشة النوادر/ ٦٨ للأستاذ عبد السلام هارون.

(٣) الخصائص ٢/ ١٣٤، وفقه اللغة/ ١٧٤.

٥ ـ ربج: الرّباجيّ: هو الرجل الذي يفخر بأكثر من فعله، فهو يعظم نفسه، ويقوي أمره.

٦ ـ رجب: يقال: رجّبت الرجل: إذا عظمته، وقويت أمره، ومنه رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه[1].

ويعلق ابن جني على هذا الاشتقاق بعد أن ذكر نماذج منه بقوله: «واعلم أنا لا ندّعي أن هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندّعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة، بل إذا كان ذلك الذي هو في القسمة سُدْس هذا أو خُمْسه متعذّراً صعباً كان تطبيق هذا وإحاطته أصعب مذهباً وأعز متلمَّساً. بل لو صح من هذا النّحو وهذه الصنعة المادة الواحدة تتقلب على ضروب التقلّب كان غريباً معجباً، فكيف به وهو يساوق الاشتقاق الأصغر، ويجاريه إلى المدى الأبعد.

وقد رسمت لك منه رسماً فاحتذه وتقبّلهُ تَحْظ به، وتُكْثِر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله، نعم، وتسترفده في بعض الحاجة إليه، فَيُعينُكَ ويأخذ بيديك» . . . إلى أن يقول:

وقلت مرة للمتنبيء: أراك تستعمل في شعرك: ذا، وتا، وذي كثيراً ففكر شيئاً ثم قال: إن هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد فقلت له: أجل، لكن المادة واحدة، فأمسك البتة. والشيء يذكر لنظيره، فإن المعاني وإن اختلفت معنيّاتها آوية إلى مضجع غير مقضّ، وآخذ بعضها برقاب بعض[2].

وهذا الاشتقاق الأكبر أول من طرق بابه ابن جني، ولذلك يقول السيوطي في المزهر: «وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني، وكان شيخه الفارسي يأنس به يسيراً[3]».

ووجه السيوطي نقده إلى هذا الاشتقاق المبتدع بقوله:

---

(١) الخصائص/ ١٣٥، وفقه اللغة/ ٧٤.

(٢) الخصائص ٢/ ١٣٨، ١٣٩، بتصرف.

(٣) المزهر ١/ ٣٤٧.

«ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب، وإنما جعله أبو الفتح بياناً لقوة ساعده، وردّه المختلفات إلى قدر مشترك. . . إلى أن يقول:

«ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها، ولكن التّحيّل على ذلك في جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مُغْرِب، ولم تحمل الأوضاع البشرية إلاّ على فهوم قريبة غير غامضة على البديهة، فلذلك الاشتقاقات البعيدة جداً لا يقبلها المحققون[1]».

* * *

٣ ـ كثرة المترادفات:

ـ ما معنى المترادف؟

«المترادف هو الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد[2]».

وهناك سببان لوقوع الألفاظ المترادفة.

أحدهما: أن يكون من واضِعَيْن وهو الأكثر بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين والأخرى الاسم الآخر للمسمّى الواحد من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ثم يشتهر الوضعان، ويخفي الواضعان، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر.

الثاني: أن يكون من واضع واحد، وهو الأقل[3].

ـ وقد ذكر علماء اللغة للترادف فوائد:

من هذه الفوائد:

١ ـ أن تكثر الطرق إلى الإخبار عما في النفس، فإنه ربما نسي أحد اللفظين أو عسر عليه النطق به.

---

(١) المزهر ١/ ٣٤٧، ٣٤٨، وعنقاء مغرب، قال في اللسان: «عنق» قال كراع: هو طائر يكون عند مغرب الشمس، وقيل: لم يره أحد.

(٢) المزهر ١/ ٤٠٢.

(٣) المزهر ١/ ٤٠٦.

٢ ـ التوسع في سلوك طريق الفصاحة، وأساليب البلاغة في النظم والنثر، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية والتجنيس، والترصيع، وغير ذلك من أصناف البديع.

٣ ـ قد يكون أحد المترادفين أجلى من الآخر فيكون شرحاً للآخر الخفي[١].

* * *

وظاهرة الترادف في اللغة العربية تدل على اتساع صيغها، وكثرة ألفاظها، ونموّ كلماتها.

ـ«فالعسل له ثمانون اسماً أوردها صاحب القاموس في كتابه الذي سماه: ترقيق الأسل، لتصفيق[٢] العسل».

ومن هذه الأسماء: العسل ـ الضَّرَب ـ الضَّرِبَة ـ الضَّرِيب ـ الشَّوْب ـ الحميت[٣] ـ الأَرْي ـ الشَّهد إلخ.

ـ والسيف ذكر له ابن خالويه في شرح الدُّريدية ٤٢ اسماً.

من هذه الأسماء: الصَّارم ـ الرَّداء ـ الخليل ـ القضيب ـ الصفيحة ـ المفقر[٤] ـ الصمصامة ـ الكهام ـ القَضْب ـ الحسام[٥] . . . إلخ.

«ويرى (الفيروزابادي) أنه يوجد للسيف في العربية ألف اسم على الأقل»[٦] وقرّر كثير من العلماء «أنه يوجد أكثر من أربعمائة اسم للدّاهية، ويوجد لكل من المطر والريح والنور، والظلام، والناقة، والحَجَر، والماء أسماء كثيرة تبلغ عشرين في بعضها، وتصل إلى ثلاثمائة في بعضها الآخر. وقد جمع الأستاذ دوهامر

---

(١) المزهر ١/ ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) الصّفق: الضّرْب.

(٣) الحميت: شديد الحلاوة.

(٤) سيف مفقر: فيه حزوز عن مَتنه.

(٥) المزهر ١/ ٤٠٩، ٤١٠.

(٦) فقه اللغة/ ١٦٣.

Dehammer المفردات العربية المتصلة بالجَمَل وشؤونه فوصلت إلى أكثر من خمسة آلاف وستمائة وأربع وأربعين[1].

* * *

٤ ـ **وضع كلمات تعبر عن الشيء بين الشيئين** : وهذه ظاهرة لا تحمل في كثير من اللغات غير كلمة واحدة وهي كلمة «وسط» أو كلمة «بين» ولكن العربية وضعت كلمات أخرى لكل ما يقع بين الشيئين، وهذا يدل على مرونة اللغة، ورصيدها الكبير من الألفاظ والكلمات ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره الثعالبي في الباب الثاني عشر من كتابه : «فقه اللغة» حيث يقول :

البَرْزخ : ما بين كل شيئين. وكذلك المَوْبق، وقد نطق بها القرآن الكريم[2].

الرَّقْدة : هَمْدة بين العاجلة والآجلة.

المَدْلَج : ما بين البئر والحَوْض.

الرَّهو : ما بين التَّلْيْن.

الظَّمْؤ : ما بين الوِرْدَين.

الفالجة : مُتَّسع ما بين كل مرتفعين.

الفُواق : ما بين الحَلْبَتَيْن.

الفَرْط : اليوم بين اليومين.

السُّدْفة : بين المغرب والشفق، وما بين الفجر والصلاة.

المزالِف : القرى بين البرّ والرّيف كالأنبار والقادسية[3].

* * *

(١) فقه اللغة/ ١٦٣.

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٣) فقه اللغة للثعالبي بتصرف/ ٦٢.

٥ ـ المُسمّيات المتعدّدة للشيء الواحد إذا تفرقت أجزاء: وذلك بوضع اسم معيّن لكل جزء من هذا الشيء الواحد.

وهذا بدون شك غناء في اللغة، وثروة في الألفاظ، وتعدّد في المعاني، ولا أدلّ على ذلك من هذه القصة اللطيفة التي ذكرها ابن يعيش في مقدمة كتابه على «شرح المفصل» قال فيما ذكره عن امرأة إعرابية كلابيّة:

كان لها ولد شاطر، كان يلاعب الصبيان فيشجونه، فتأخذ أرْش الشّجاج حتى استغنت من ذلك فقالت:

أحلف بالمـرْوة يومـاً والصّفا إنـك أجـدى من تفـاريق العصا

سئل أعرابي عن قولهم: «أجدى من تفاريق العصا» فقال: إن العصا تقطع سواجير للأسارى والكلاب، ثم تقطع السواجير أوتاداً، ثم تقطع الأوتاد أشظة، فإن جعلوا رأس الشظاظ كالفَلْكَة صار مِهاراً، وهو العود يوضع في أنف البُخْتِيّ، وهي الإبل الخراسانية، فإنْ فُرّق المِهارُ صار منه توادّ[1]، وهي خشبات تشد على أخلاف الناقة إذا صُرّتْ، فإن كانت العصا قناة، فكل شِقّةٍ منها جُلاهِق، وهو قوس البُنْدق[2]، وإن فُرّقت الشّقّة صارت سهاماً، وإذا فرقت السّهام صارت حظاءً، والحِظاء: جمع حُظْوة وهو السهم الصغير، فإن فرقت الحِظاء صارت مغازل، فإن فرّقت المغازل شَعِب بها المُشْعِب أقداحه المصدوعة، فكيف تَشَظّت آلت إلى نفع فَضُرِب في الانتفاع بها المثل[3]».

* * *

٦ ـ الكلمات الإسلامية التي رفعت من بنيان اللغة العربية: هناك كلمات دخلت بناء اللغة العربية بعد الإسلام يطلق عليها: «الألفاظ الإسلامية» ويتحدث الصاحبي عن هذه الألفاظ الإسلامية التي زيدت في البناء اللغوي بقوله:

«كانت العرب في جاهليتها على إرْثٍ آبائهم في لغاتهم وآدابهم، ونسائكهم

---

(١) التوادي، واحدتها تودية.

(٢) البُنْدُق: الذي يرمي به، واحدة: بُنْدُقَة انظر اللسان: بندق.

(٣) مقدمة الفصل/ ١٥، وانظر اللسان: «فرق».

وقرابينهم، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات. وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت فعفّى الآخرُ الأوّلَ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق... ومما جاء في الشرع الصلاة، والزكاة[1].

ومن الكلمات الإسلامية: الجوائز جمع جائزة، قال ابن دريد في «الجمهرة»: الجوائز: العطايا، الواحدة جائزة.

قال ابن دريد: وذكر بعض أهل اللغة أنها كلمة إسلامية، وأصلها أن أميراً من أمراء الجيوش واقف[2] العدو وبينه وبينهم نهر، فقال: من جاز هذا النهر فله كذا وكذا، فكان الرجل يعبر النهر فيأخذ مالاً، فيقال: أخذ فلان جائزة فسميت جوائز بذلك[3]».

والمحرّم: شهر لم يكن معروفاً في الجاهلية، «وإنما كان يقال له ولصفر: الصَّفَرَيْن، وكان أوّل الصَّفَرَيْن من أشهر الحُرُم، فكانت العرب تحرمه وتارة تقاتل فيه، وتحرم صفر الثاني مكانه[4]».

ويعلق السَيوطي على هذه الفائدة التي أفادها من ابن دريد في «جمهرته» فيقول:

«وهذه فائدة لطيفة لم أرها إلا في الجمهرة فكانت العرب تُسمّي المحرّمْ: صفر الأول وصفر الثاني، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة فلما جاء الإسلام، وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء[5] سمّاه النبي ﷺ: شهر الله المحرم كما في الحديث: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم» وبذلك عرفت النكتة في قوله: شهر الله، ولم يرد مثل ذلك في بقية الأشهر ولا رمضان».

(١) المزهر ١/ ٢٩٤.

(٢) الوقاف والمواقفة: أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة، وتواقفا في القتال انظر القاموس: وقف

(٣) المصدر نفسه/ ٣٠٠.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) شَهْر كانت تؤخره العرب في الجاهلية.

ويعترف السيوطي بأنه كان جاهلاً بهذه النكتة فيقول: «وقد كنت سئلت من مدة عن النُكتة في ذلك، ولم يحضرني فيها شيء حتى وقفت على كلام ابن دريد هذا فعرفت به النكتة في ذلك[1].

وفي فقه اللغة للثعالبي: إذا مات الإنسان من غير قتل قيل: مات حتف أنفه وأول من تكلم بذلك النبي ﷺ[2]».

* * *

٧ـ ومن اتساع اللغة في مجال التراكيب تقارض الألفاظ:

وضّح ابن يعيش معنى التقارض حيث قال: «معنى التقارض أن كل واحد منهما (أي من اللفظين) يستعير من الآخر حُكْماً هو أخصّ به، فأصل «غير» أن يكون وصفاً والاستثناء فيه عارض معار من إلاّ[3]».

وقد ذكر ابن هشام هذه الظاهرة في القاعدة الحادية عشرة من كتابه المغني.

وذكر لذلك أمثلة منها:

ـ إعطاء (أن) المصدرية حكم «ما» المصدرية في الإهمال كقوله:

أن تقرآن على أسماء ويحكما مِنّي السّلام وألاّ تُشْعِرا أحدا[4]

وإعمال «ما (حملاً)» على «أن» نحو: «كما تكونوا يُولّى عليكم».

ـ إعطاء إنْ الشرطية حكم لو في الإهمال نحو: «فإن لا تراه فإنه يراك»، وإعطاء لو حكم إنْ في الجزم نحو:

لو يَشَأْ طار به ذومَيْعة لاحق الأطال نَهْدٌ ذو خُصَل[5]

ـ إعطاء إذا حكم متى في الجزم بها كقوله:

---

(١) المزهر ١/ ٣٠٠.

(٢) المزهر ١/ ٣٠١. وانظر سنن ابن داود: باب الجهاد ١٤، ومسند ابن حنبل ٤/ ٨٦.

(٣) الأشباه والنظائر ١/ ٣٤٠ بتحقيقي.

(٤) من شواهد: المنصف ١/ ٢٧٨، وابن يعيش ٧/ ١٥، ٤٣٨ والخزانة ٣/ ٥٥٩، وقائله مجهول.

(٥) الميعة: النشاط، والأطال: الخواصر، واحدها: إطْل، والنهد من الخيل: الجسيم، وانظر مصادر هذا الشاهد في الأشباه والنظائر ١/ ٣٣٤ بتحقيق المؤلف.

واستغـن ما أغنـاك ربـك بالغنى وإذا تُصِبْـك خَصاصـةٌ فتحَمّل[1]

وإهمال متى حملاً على إذا كقول عائشة رضي الله عنها: «وإنه متى يقوم مقامك لا يسمع الناس»[2].

ـ إعطاء ما النافية حكم «ليس» في الإعمال، وإعطاء ليس حكم «ما» في الإهمال عند انتقاض النفي بـ «إلا» كقولهم: ليس الطِّيب إلا المسك.

ثم يسوق ابن هشام أمثلة متعددة توضح هذه الظاهرة، ويختم الحديث عنها بقوله: «ولو ذكرت أحرف الجر، ودخول بعضها على بعض في معناه لجاء من ذلك أمثلة كثيرة[3].

هذا وقد عبر شاعر النيل حافظ إبراهيم عن سعة اللغة العربية واستيعابها لكل ما جدّ من معان، وورد من أفكار فقال:

وسعـت كتـاب الله لفظـاً وغاية ومـا ضقـت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسمـاء لمخترعات
أنـا البحـر في أحشائـه الدر كامن فهـل سألـوا الغوّاص عن صَدَفاتي[4]

* * *

بعد هذه الجولة التي قمت بها في مجال اتساع اللغة العربية نعود إلى السؤال نفسه الذي بدأت به هذا البحث: لماذا التعريب؟

وللإجابة عن هذا السؤال أقول: إن اللغة كائن حيّ يأخذ ويعطي ويؤثر ويتأثر، لأن اللغة هي الوسيلة الأولى للإنسان ليدخل بها معترك الحياة. والإنسان كائن اجتماعي، فكلما تطوّر تطورت لغته ونمت.

واللغة العربية في شعرها ونثرها لم تغلق على نفسها أبواب العزلة لأن طرق الاتصال بين العرب وغيرهم كانت مفتوحة، وقد نص القرآن الكريم على أن لقريش

(١) لعبد قيس بن خفاف، وانظر مصادر هذا الشاهد في هامش الأشباه ١/ ٣٣٥ بتحقيقي.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، ومسند ابن حنبل ٦/ ١٥٩، وشواهد التوضيح / ١٩/ ٣٣٤.
(٣) المغني ٢/ ٧٨١.
(٤) ديوان حافظ إبراهيم ١/ ١٩٤، ١٩٥ ط ثانية ـ المطبعة الأميرية القاهرة.

رحلتين «رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى «بُصْرى» من أرض الشام».

وينص الألوسي في تفسيره أن «أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة، وهم بنو عبد مناف:

ـ هاشم كان يؤالف ملك الشام، أخذ معه خيلاً، فأمن به في تجارته إلى الشام.

ـ وعبد شمس كان يؤالف إلى الحبشة. والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس فكان هؤلاء يسمون المتّجرين، فيختلف تجْر قريش بخيل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرّض لهم.

وفي هؤلاء الإخوة يقول الشاعر:

يأيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها والراحلون رحلة الإيلاف
والرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للأضياف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يصير فقيرهم كالكافي[1]

ومن البدهي أن اختلاط العرب بغيرهم قبل الإسلام ساعد على فتح الباب أمام الكلمات الأعجمية، وبخاصة في مجال الشعر، وذلك ما نتناوله في النقطة التالية.

* * *

الكلمات المعربة في الشعر الجاهلي:

لا نستطيع أن نقرر هنا أن لهجة قريش أو لغتها التي يمثلها الشعر الجاهلي كانت بمعزل عن الاحتكاك اللغوي.

وقد ترك هذا الاحتكاك اللغوي في الشعر الجاهلي بعض الكلمات التي لم تكن من نسيج لغة قريش أو غيرها من لهجات العرب الأخرى.

(١) تفسير الألوسي ٣٠/ ٢٤٠.

والتاريخ يحدثنا أن الكثير من شعراء الجاهلية قبل الإسلام كانت لهم علاقة بالمناذرة الخاضعين للفرس، والغساسنة الخاضعين للروم.

فامرؤ القيس مثلاً وهو أمير الشعراء في العصر الجاهلي. وفد إلى قيصر ملك الروم في قصة ذكرها الأغاني[1]، وسجل طرَفاً منها ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء[2]».

وماذا يعني اتصال امرىء القيس بقيصر؟ ألا تمدّ لغة الروم زاده اللغوي العربيّ بكلمات روميّة أجنبية؟ فإذا أراد أن يعبر عما يجول في نفسه من الشعر قفزت هذه الكلمات الدخيلة إلى لسانه من حيث لا يدري ولا يشعر، لأنها أصبحت لصيقة بلغته العربية، والتخلص منها صعب المنال.

ولست في هذا البحث بصدد استيعاب الكلمات الأجنبية التي وردت في شعر امريء القيس، فإن لذلك بحثاً آخر ـ إن شاء الله، ولكن نكتفي فقط بذكر نماذج من هذه الكلمات لتدلّ على ما أقول، وتدعم ما أعرض. من هذه الكلمات: «فرانق».

وردت هذه الكلمة في بيت من قصيدته التي قالها حينما توجه إلى قيصر مستنجداً على بني أسد.

ومن هذه القصيدة هذه الأبيات التي يذكر فيها الروم، وقيصر:

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمداً إلى الروم انقرا
بكى صاحبي لمّا رأى الدَّرْب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبك عَيْنُك إنما ... نحاول مُلْكاً أو نموت فَنُعْذرا
وإني زعيمٌ إن رجعت مملّكاً ... بِسَيْرٍ ترى منه الفُرانِق أزْورا[3]

وكلمة: «فرانق» التي وردت في البيت الأخير ذكرها الجواليقيّ فقال:

---

(١) الأغاني ٩/ ٧٧ وما بعدها.

(٢) الشعر والشعراء ١/ ١١٥.

(٣) الديوان/ ٩٥، وانظر شرح الكلمات في هامش الديوان.

«والفرانق» قال ابن دريد: هو فارسيّ معرب، وهو سبع يصيح بين يدي الأسد، وكأنه ينذر الناس به، ويقال: إنه شبيه بابن آوى ويقال له: «فرانق الأسد[1]».

ويذكر اللسان: أن: «الفرانق» معروف وهو دخيل. والفرانق: البريد وهو «بروانة» بالفارسية[2] ثم استشهد ببيت امريء القيس السابق.

* * *

وفي شعر زهير وردت كلمة: «أَرْدَمون» في قوله:

عوّم القوادس قفيّ الأردمون بها إذا ترامى بها المقلولب الزّبد[3]

ووردت هذه الكلمة أيضاً في شعر أمية بن عائذ الهذليّ يمدح عبد العزيز بن مروان، قال:

وتهفو بهاد لها مَيْلَعٌ كما اطّرد القادِسَ الأردمونا[4]

والأردمون كما في الجمهرة: الملاّحون[5].

والمعنى: أن ناقة الشاعر تميل بعنقها الطويل الذي يقوم منها مقام الهادي كما يوجه الملاّحون السفينة العظيمة.

ويبين الدكتور السيد يعقوب بكر أن كلمة: «الأردمون» «معرب أريمون» في اليونانية، وهو نوع من الشروع[6].

* * *

وفي شعر الأعشى وردت كلمات أجنبية، ومعظمها من اللغة الفارسية، ولهذا يبينّ ابن قتيبة: «أن الأعشى كثرت الفارسية في شعره، لأنه كان يفد على ملوك فارس»[7].

---

(١) المعرّب للجواليقي ٢٣٨.

(٢) اللسان: فرنق.

(٣) شرح ديوان زهير صنعة ثعلب / ٢٨٠ طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٤.

(٤) الجمهرة ٢/ ٢٦٣.

(٥) المصدر السابق والصفحة.

(٦) انظر دراسات مقارنة في المعجم العربي للدكتور سيد يعقوب بكر / ١٤.

(٧) الشعر والشعراء ١/ ٢٦٣.

والدليل على كثرة الفارسية في شعرة قوله:

فلأشربن ثمانياً وثمانيا وثمانَ عشرة واثنتين وأربعا
من قهوة باتت بفارس صفوة تدع الفتى مَلِكاً يميل مُصرّعا
بالجُلّسان وَطيِّب أردانُه بالْوَنٌ يضرب لي يَكُرُّ الإصْبَعا
والنّاي نرمُ وَبَرْبَطٍ ذي بُحّة والصَّنْجُ يبكي شجوه أنْ يُوضَعا[1]

وسمعه كسرى يوماً ينشد، فقال: من هذا؟ فقالوا: اسروذ كُوَيْذ تازي أي مُغَنِّي العرب، فأنشد:

أرقتُ وما هذا السهاد المؤرق وما بي مِنْ سُقْمٍ وما بِيَ مَعْشَقُ

فقال كسرى: فسروا لنا ما قال: فقالوا: ذكر أنه سهر من غير سُقْم ولا عشق، فقال كسرى: إن كان سهر من غير سقم ولا عشق فهو لِصّ. ووردت أيضاً في شعر الأعشى كلمة «الأرائك».

وقد ذكر السيوطي في «الاتقان[2]» أن ابن الجوزي حكى في كتابه: «فنون الأفنان»: أن الأرائك هي السّرر بالحبشيّة، وقد وردت هذه الكلمة في شعر الأعشى في قوله:

بين الرِّواق وجانب من سَيْرِها مِنْهَا وبين أرائك الأنضاد[3]

* * *

والنابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قُبّة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها[4]. ولا يحكم بين الشعراء إلاّ من بلغ القمة في الشعر.

(١) الشعر والشعراء ١/ ٢٦٤، وفي هامشه: النّاي، ونرم، والصّنج: من آلات الملاهي وهو الونّ.
(٢) الإتقان: ١/ ١٣٧.
(٣) انظر ديوان الأعشى/ ٥١.
(٤) الشعر والشعراء ١/ ١٧٣، ١٧٤.

ومع هذه المكانة التي وصل إليها النابغة في ميدان الشعر فإن شعره لم يخل من الألفاظ الأعجمية بسبب تردده على المناذرة مرة، والغساسنة مرة أخرى، فمن الكلمات الأعجمية التي دخلت في شعر النابغة: كلمة «سفسير».

والسفسير بالفارسية: هو السمسار.

قال أبو عبيد عن الأصمعي في قول النابغة:

وقَارَفَتْ وهي لم تَجْرَب وباع لها من الفصافِصِ بالنُّمَيِّ سِفْسِيرُ[1]

ففي هذا البيت النُّمَيّ: اسم للفلس وهو رومي، والسفسير: العبقري وهو الحاذق بصناعته من قوم سفاسرة وعباقرة، ويقال للحاذق بأمر الحديد سفسير، نقل ذلك الجواليقيّ في المعرّب عن مؤرج السّدوسي[2].

* * *

والشاعر طرفة بين العبد علاقته بالفرس ناشئة عن علاقته بالمناذرة الذين اتصل بهم، وعلى رأسهم عمرو بن هند.

ويبدو أن طرفة كان محباً للهجرة، مغرماً بالتنقل من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار، ولم تقتصر رحلاته على المناذرة بل تجاوز ذلك، فرحل إلى الحبشة، واتصل بالنّجاشي.

ومما يدلّ على حبه للرّحلات قوله:

تُغَيّر سيري في البلاد ورحلتي ألا رُبَّ دارٍ من سوى حُرِّ دارك
وليس امرؤ أفْنى الشباب مُجاوراً سوى حَيِّهِ إلا كآخر هالك[3]

وفي رحلته إلى الحبشة، واتصاله بالنجاشي سجل قصيدة مطلعها:

لخِولَة بالأجزاع من إضَمٍ طَلَلْ وبالسفح من قَوٍّ مُقام ومُحْتَمل[4]

(١) ديوان النابغة: ١٣٦، ١٣٧. وفي هامش الديوان: النُّمَيُّ: اسم جمع نميّة: وهو اسم للفلس، روميّ.
(٢) المعرّب / ١٨٥، ١٨٦.
(٣) ديوانه/ ١١٤، ١١٥، وحرّ دارك: أي أكرمها.
(٤) ديوانه/ ١١٧.

ومن الكلمات الأجنبية التي وردت في شعر طرفة كلمة: «أسبذ» قال الجواليقيّ: قال أبو عبيدة: أسبذ: اسم قائد من قواد كسرى على البحرين فارسيّ معرّب، وقد تكلمت به العرب قال طرفة:

خذوا حذركم أهل المشقّر والصّفا عبيد أسبذٍ والقَرْضُ يُجْزى من القَرْض

والصفا والمشقر من البحرين.

وقال غير أبي عبيدة: «عبيد أسبذ» أي يا عبيد البراذين، و «أسبذ» فارسي عرّبه طرفة، والأصل: أسب وهو ذكر البراذين يخاطب بهذا عبد القيس[1].

* * *

ـ وعلاقة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند علاقة سجلها التاريخ، وكون منها قصة تروى، وحديثاً يجري على ألسنة العرب.

ومن الكلمات الأعجمية التي وردت في شعره:

ـ كلمة: «أرجوان».

وردت هذه الكلمة في بيت من معلقته المشهورة وهو:

كأن ثيابنا منّا ومنهم خضبن بِأُرْجُوانٍ أو طُلينا

يقول الجواليقي في الأرجوان: هو صبغ أحمر، وهو فارسيّ[2].

وفي اللسان: «رجا»: أُرجوان: معرب أصله أرغوان بالفارسية فأعرب، قال وهو شجر له نَوْرٌ أحمر أحسن ما يكون، وكل لون يشبهه فهو أُرجوان، ثم استشهد ببيت عمرو بن كلثوم السابق.

* * *

وفي شعر عنترة وردت كلمة: «القمقم» في قوله:

---

(١) المعرب/ ٣٨، ٣٩.

(٢) المعرّب/ ١٩.

وكأن رُبّـا أو كُحيلاً معقّدا حشَّ الوقودُ بـه جوانِـبَ قُمْقُمِ[1]

يقال: حششت النار: إذا أوقدتها.

قال الجواليقي في المعرب: القمقم، قال الأصمعي: هو روميّ معرّب، وقد تكلمت به العرب، وجاء في الشعر الفصيح[2].

* * *

ولبيد بن ربيعة علاقته بالغساسنة والمناذرة مشهورة سطرت على صفحات التاريخ.

ومن الكلمات الأعجمية التي وردت في شعره:

ـ الجُمانة: وهي الدرة.

قال الجواليقي: الجُمان: خرز من فضة أمثال اللؤلؤ فارسّي معرّب، تكلمت به العرب قديماً، وجعل لبيد الدرة جمانة فقال:

وتضـيء في وجـه الظـلام منيرةً كجُمانـة البحـريُ سُلّ نظامها[3]

* * *

والحارث بن حلزة له صلات بملوك الحيرة، ومعلقته المشهورة قالها في مجلس عمرو بن هند ارتجالاً فلما أنشده هذه القصيدة أدناه حتى خلص إليه[4].

ومن الكلمات الأعجمية التي وردت في شعره:

كلمة «فارسية» وردت هذه الكلمة في وصف كتيبة حيث قال:

حُجْـرًا أَعْنِـي ابـنَ أُمِّ قطام ولـه فـارسّيـة خضـراءُ

---

(١) المعرب/ ٢٦٠ وفي هامشه: الرّب: هو الثفل الأسود للزيت والسمن والكحيل: الذي يطلى به الإبـل، «معقّداً»: غليظ. وانظر ديوان عنترة/ ١٥٨. وروايته: «حشّ القيانُ» مكان: «حشّ الوقود». والقمم: القِدْر.

(٢) المعرب/ ٢٦٠.

(٣) انظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري/ ٥٦١.

(٤) المصدر السابق/ ٤٣١، ٤٣٢.

والفارسية الخضراء: الكتيبة الخضراء من كثرة السلاح، أعني أن هذه الكتيبة سلاحها من عمل فارس[1].

* * *

وبعد، فإن هذه الكلمات الأعجميّة أو المعرّبة اقتحمت أقوى بناء شعري وهو البناء المتمثل في المعلّقات.

ومعنى المعلقة كما يقول البغدادي في خزانته: «إنّ العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض، فلا يعبأ به، ولا ينشده أحد حتى يأتي مكّة في موسم الحج، فيعرضه على أندية قريش فإن استجسنوه روي، وكان فخراً لقائله، وعلّق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح، ولم يعبأ به».

ثم قال: «وأول من علق شعره في الكعبة امرؤ القيس، وعدد من علق شعره سبعة، ثانيهم طرفة بن العبد، وثالثهم: زهير بن أبي سلمى، ورابعهم: لبيد بن ربيعة، وخامسهم: عنترة، وسادسهم: الحارث بن حلزة، وسابعهم: عمرو بن كلثوم[2].

وإذا نظرنا إلى هذه الكلمات المعرّبة التي استعارها الشعراء في الجاهلية بسبب الاختلاط بغيرهم نجدها قليلة لا تؤثر على البناء اللغوي، وقد استطاعت العربية أن تطوّعها إلى أبنيتها، وتحولها إلى صيغها باسم التعريب فما التعريب؟

---

(١) المصدر السابق/ ٤٩٦.

(٢) الخزانة ١/ ١٢٥، ١٢٦ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.